هجائية السلطة السياسية ودلالتها النسقية المضمرة في قصص محمد الكاظم القصيرة

سجاد ابراهيم سدخان أ.د- علي احمد محمد

جامعة الموصل – كلية التربية الاساسية

sajadibrahim١٩٨٥@gmail.com

ملخص البحث

تقوم هذه الدراسة بوصف ظاهرة الهجاء السياسي من حيث تعريفه وانماطه ودلالاته النسقية عند القاص محمد الكاظم إذ يعد الهجاء السياسي موضوعة رئيسة يشتغل عليها النص السردي في العراق ، فأن حضور السلطة السياسية وتحديد نسق هجائيتها يعبرفي كشف انحطاطها فهو مرتبط بمستوى تأثر المجتمع بالأداء السياسي القمعي التي تمارسه الحكومات المتسلطة التي تعاقبت على الحكم في تاريخ العراق

الكلمات المفتاحية : الهجاء _ الدلالة النسقية – المضمر النسقي

The satire of political power and its implicit systemic significance in Muhammad al-Kadhim's short stories

Abstract

This study describes the phenomenon of political satire in terms of its definition, patterns, and systemic implications for the narrator Muhammad al-Kadhim, as political satire is a major topic on which the narrative text in Iraq operates. The authoritarian governments that have ruled in the history of Iraq

الهجاء لغة :

للهجاء معان كثيرة ويعود اصله اللغوي الى الفعل الثلاثي (هجا) ويكون المصدر منه هجوا وهجاء والمعنى الذي يدل عليه الهجاء كما جاء في المعاجم العربية [١]. ولسان العرب وهو الشتم بالشعر خلاف المدح قال الليث : وهو الوقيعة في الانساب والسباب وذكر المثالب وتعداد المعايب ويكون بالشعر غالبا ففي لسان العرب هجاه يهجوه هجواً وهِجاء وتهجاه بمعنى شتمه بالشعر وهو خلاف المدح والمرأة تهجو زوجها أي تذم صحبته فالهجاء والهاجة الضفدع والضفدع كما هو معروف قبيح الشكل والصوت [٢].

هجائية السلطة :

تعد هجائية السلطة وتوثيق استبدادها موضوعة رئيسة يشتغل عليها النص السردي في العراق[٣]. ويقدم الحراك السردي نماذج توشر عودة محددة المعالم الى الهجاء السياسي على انه فناً مستقلاً وبيانا سياسيا واضحا ونجد في هذه الفترة ظهور ميل هجائي انخرط فيه عدد من الكتاب بكل ذخيرتهم الحداثوية، ونجد الهجاء اليوم نوع فريد، إلا أنه يشترك في حسه الوطني النقيض للاصطفاف السياسي [٤] " فأن حضور السلطة السياسية وتحديد نسق هجائيتها عبر في كشف انحطاطها فهو مرتبط بمستوى تأثر المجتمع بالأداء السياسي القمعي التي تمارسه الحكومات المتسلطة التي تعاقبت على الحكم في تاريخ العراق المعاصر اذ قام السرد القصصي على كشف القسوة والدكتاتورية وضيق مساحة الحرية ضمن اجرائه السردي فالنسق الثقافي يتمحور حول نظرية السلطة مما تدعيه من مزاعم وطنية وتدني ادائها نابع من مستوى اخلاقها" [٥]. وقد افاد الكاتب في اسلوبه الحداثو ي ليبتكر رؤى جديدة وصياغات تعبيرية تتصف بالجمال إذ ارتبطت هجائية السلطة ، عند محمد الكاظم بالأنساق الثقافية السائدة في العراق ؛ بوصفها إفرازاً حداثوياً ، فقد استطاعت الحداثة أن تفرض سيطرتها على المناهج النقدية ، وقد تأثرت

الروح الحداثية – في الفن والأدب– بثلاثة توجهات رئيسة ، قادتها الحداثة الفكرية الاجتماعية ، وتمثلت في التوجه الثقافي، الذي دعا إلى الاعتماد على المعرفة الحسية الملموسة ، والمنهج العقلاني ، والتجربة التي تنتج المعرفة التي يمكن تطبيقها لتغيير وجه الحياة فأن الرسالة التي يرغب الكاتب في توصيلها واضحة ومن الملاحظ ان الخطاب السياسي عنده فقد تجنب الأداء الصريح واعتمد الية النسق المضمر الناسخ للنسق الظاهر ، والتورية الثقافية التي تعتمد عليه

وهو ما نحن بصدده عند الكاتب في تتناول الممارسات السياسية المنحرفة للسلطة وسيطرة فكرة الزعيم الأوحد على الساحة السياسية . وقد تعددت مواضع المضمر في النتاج القصصي لمحمد الكاظم ، مما يندرج تحت هجائية السلطة ، ومن ذلك تناوله لفكرة الولاء الزائف للحزب البعثي الواحد، وعدم تورع الأب في تقديم ابنه للمحاكمة ؛ طمعا في الحظوة ، ونيل ترقية حزبية . يقول البطل متحدثا عما فعله معه أبوه ذو الانتماء السياسي لحزب البعث.

"وفي المرة الثالثة، طاردني إلى مدينة أخرى مع مجموعة من رفاقه، وقام بتسليمي إلى الانضباط العسكري، فسجنت ثلاثة أشهر، ثم أطلق سراحي بعد أن وقعت عشرات التعهدات بعدم الهروب مرة أخرى. طبعا هو حصل على ترقية حزبية، وصار رفاقه الحزبيون ينظرون إليه نظرة احترام وخوف ؛ فالذي وشي بابنه لن يتورع عن الوشاية بهم (٦)

يكشف هذا النص عن دلالة نسقية مهيمنة ، ناقضة وناسخة للظاهر، ناقلا التجربة الفردية إلى العمومية للتدليل على استشرائها في المجتمع، ويدفع الأب المنتمي لحزب البعث العراقي بابنه إلى ساحة الحرب، ويشي به لدى السلطات ، فيكون سببا في سجنه ؛ لنيل مزيد من الحظوة في الحزب، وهو نسق جمالي يخفي خلفه نسقا قبيحا انتشر في العراق، من البطولة الزائفة ، وتحول أفراد الشعب إلى مجموعة من الجواسيس، لا يتورع أحدهم عن الوشاية بأقرب الناس إليه في سبيل القرب من مركز صنع القرار للدرجة التي ألقت بالخوف في نفوس الزملاء الحزبيين ؛ لوقوفهم على وضاعة الزميل الذي لن يستطيعوا مجاراته في وضاعته ، وانحطاطه إلى الدرك الذي يتفانى فيه في خدمة الفكرة الزائفة، فيقدم ابنه على مذبح السلطة الفاسدة وهذا ما يهتم به النقد الثقافي الأنثروبولوجي(٧)، فيهتم النقد الثقافي بالفرد كلبنة أولية تكون المجتمع ، ومن ثم ، يؤكد أهمية العودة إلى النص، والإفادة من كل ما تنتجه السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسساتية، والنقد الثقافي بذلك يحاول أن يتجاوز التصنيف المؤسساتي للنص؛ بوصفه وثيقة جمالية إلى الانفتاح على الخطاب ؛ بوصفه ظاهرة ثقافية أوسع "(٨) .. كما يكشف النص عن الحرب المصطنعة التي اصطنعها القائد؛ لإضفاء بطولة غير حقيقية على شخصه ؛ ليبدو الزعيم المهيب الذي يدافع عن العروبة من دون الرجوع إلى الشعب، فصار الوطن خاضعا لسلطة لا تعرف أبسط حقوق المواطن في الحوار وإبداء الرأي ... لم يكترث الكاتب للواقع المعيش بقدر ما حرص على إبراز آثاره على الفرد ، ومن ثم فقد شمل النسق المضمر ما تقوله أو تفعله شخصيات النصوص، أو ما يقوله ويفعله البشر في حياتهم اليومية "في سلوك الأفراد والجماعات في أسلوب العقل الإنساني

والنفس، ووظيفة الجسم، والعلاقة بين النفس والجسد" (٩) وباتت هموم المواطن، كلبنة أولية يتشكل منها المجتمع، في بؤرة اهتمام الكاظم، فجاءت محاولاته القصصية راصدة لتفصيلات الحياة اليومية، والأحداث الحياتية التي يمر بها المواطن يوميا لا سيما مواجهة كيان منظم يتحكم في مقاليد الأمور بالبلاد، فتتجلى ملامح الفرد في سياق المجموع ، فينتج عن ذلك كثير من الأنساق المضمرة التي تعري الظاهر، وترسل الخطاب الثقافي إلى منطقة دلالية يتجاذبها اتجاهان متناقضان فقد برز هذا التوجه بشكل لافت في حرص الكاظم على تأكيد فكرة التحام الكيانين: الكيان السلطوي السياسي، والكيان العسكري، كل في الآخر، فاتضحت معالم النظام الشمولي المتركز في يد فرد واحد، وحزبه الذي محا هوية الممارسات الحرة في سبيل الانفراد والاستئثار في السلطة، فأصبح الحاضر الغائب في الحياتين: المدنية والعسكرية على السواء، وهو ما تجلى في امتهان آمر السرية، الممثل للحزب الحاكم في جناحه العسكري، لجندي تحت إمرته، ضبطه نائما يحلم ، فما كان منه إلا أن سأله عمن كان يحلم به " كنت أحلم . بماذا كنت تحلم با (....) امك أحيانا كنت أشعر أن هذه الحرب لا تنتهي وجدتني أقول له دون وعي: كنت أحلم بزوجتك. زمجر المكان، واصفرت وجوه الجنود الذين كانوا يراقبون المشهد ، وارتجفت شوارب العرفاء، وزأر الحزب في عيون الملازم، وزمجرت قياداته القومية والقطرية وكل أناشيد القرف القومي "(١٠).

يعبر المؤلف عن حالتين متناقضتين: التفاني في خدمة الوطن ، والتضحية في سبيله، في مقابل التفاني في خدمة الحزب، والرغبة في الوقوف على أدق خفايا الناس، والوصول إلى أسرارهم، وهو ما أبرز دلالة نسقية مضمرة باشرت عملها الترويضي ، ومن ثم ، اختبأت خلف أقنعة ظاهرية من سؤال آمر السرية لأحد جنوده عن سبب تقصيره، ونومه في أثناء الخدمة، وهو سؤال اعتيادي درجت عليه الحياة العسكرية و ألفته، إلا أن السؤال هذه المرة دار حول محتوى الحلم، مما مثل نسقا مضمرا يؤسس لممارسات النظام الشمولي، والدولة البوليسية التي تأتمر بأمره، ومن ثم عمد المؤلف إلى إبراز حرصه على معرفة جميع أسرار المواطنين، ولو وصل الأمر إلى مطاردتهم في أحلامهم ، فجاءت نقطة الانفجار الواردة في النص؛ بسب الجندي لقائده، وادعائه أنه كان يحلم بزوجته.إذ عمد المؤلف إلى إفساح المجال للقارئ ليبحث عن المعنى أو القصد، مرورا بالتذوق و إبراز الجماليات، ووضعها في سلم القيم الجمالية، وانتهاء بتأجيل المعنى، وترك فرصة للقارئ لمليء فجوات النص وفراغاته، كممارسة ثقافية، والتي هي خلاصة المعرفة التي تم التصرف بها؛ من خلال كفاءة القارئ ، وقدرته على إذابة وصهر مجمل العناصر الثقافية، والإفادة منها نوعيا (١١)من هنا وظف المؤلف النسق المختبئ وراء الشعارات الزائفة ، وهيكلية الدولة التي تؤسس

للحكم المطلق، في إبراز توقيت انفجار الثورة ؛ جراء ما يطال جميع المواطنين من ضغوط معنوية يسعى النظام لفرضها عليهم فرضا ، وهو ما يجتمع في بوتقة الثورة الشعبية التي تبعث ظواهرها فجأة على فوهة بركان جما عي هادر وترك الفرصة للقارئ ليتمثل الدلالات النسقية في حياته اليومية ، كل بقدر ما يجد ويقابل ، بذلك في التحام النص بالواقع ؛ ليبدو واقعا محكيا عن الواقع الحياتي الحقيقي . ويضاف إلى ما سبق ، ضرورة توظيف المؤلف للمضمر لإعادة تصور مفهومي للجمال و القبح ؛ للتخلص من " قيد التصور الرسمي المؤسساتي ، بحيث يعاد النظر في أسئلة الجمالي وشروطه، و أنواع الخطابات التي تمثله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لابد من الاتجاه الكشف عيوب الجمالي، والإفصاح عما هو قبحي في الخطاب، وكما أن – لدينا نظريات في الجماليات، فإنه لابد أن نوجد نظريات في (القبحيات)، أي: في عيوب الجمالي وعلله وهي نوع من علم العلل، كما في مصطلح الحديث (١٢) لذا لا ينسى المؤلف أن يبرز مفهومي: الجمال والقبح، معتمدا على اختباء القبيح وراء الجميل، والزائف في مقابل الحقيقي، والخيانة والعمالة في مقابل الإخلاص، على النحو الذي يظهر فيه التناقض من دون أن يطلب المؤلف ظهوره؛ الضرورة عدم التدخل في سلطة القارئ، وقدرته على إعادة إنتاج النص، فينزاح الحد الفاصل بين الظاهر والخفي، فيتسع المجال ليؤدي المضمر وظيفته، فتجلى الفارق بين القبيح والجميل.

وبناء عليه، يعمد المؤلف إلى تناول ممارسات السلطة، ورجالها المسؤولين على خط النار في الحرب، فلئن كانت تلك الممارسات تتخفي وراء الحفاظ على الحياة المدنية، إلا أنها على الجبهة ذات طبيعة مختلفة تماما عما تبدو عليه في الحياة المدنية ، فنكون وسيلة التكدير والعقاب على الجبهة ذات دلالات نفسية خاصة: "اكتفى الضابط بمعاقبتي بجمع براز الجنود المتجمع في الخندق بيدي العاريتين ، وأوكل أمر معاقبتي إلى مسؤولي الحزبي الذي كان يتلمظ مثل سلحفاة ضريرة . وفي جمع مخلفات متحجرة لبطون أرهقها عدس القصعة قضيت النهار البائس الذي اصطبغ بلون الخراء ، كانت الروائح الحامضة تملأ خندقا متروكا يستعمله الجنود القضاء حاجتهم . جمع الغائط و هو طري أسهل بطبيعة الحال من جمعه وهو طري ، لذلك فضلت العمل في البداية على جمع القطع المتيبسة بانتظار أن تجفف الشمس ما تبقى من براز كان بعضه سائلا تتصاعد منه أبخرة قوية لفظتها بطون أنهكها تناول العدس" (١٣).

عمد الكاتب ، في النص أعلاه على تعارض نظامين من أنظمة الخطاب ، في حين يبدو القائد في مهمته الروتينية التي تخول له الحق في معاقبة من يخالف الأوامر من الجنود ، يتجلى النسق

المضمر فيما انطوى عليه تسليم الجندي للمسؤول الحزبي فضلا عن نوع العقاب ، إذ أطل الحزب بوجهه البغيض على الجبهة ، كما هو الحال في الحياة المدنية ، وكأنه جزء لا يتجزأ من تفصيلات حياة المواطن العراقي ، الذي عانى منه مدنيا وعسكريا ، مما يدل على تحكم فكرة الفرد الواحد والحزب الواحد في حياة العراق . وقد اعتمد المضمر الوارد في الفقرة على استنباط الدلالة يحتاج إلى فهم معرفة الإشارات الضمنية في كلام المتكلم ، مما يستدعي تشاركا معه في فهم الخطاب ، أو بمعنى أوضح : تواطؤ المرسل و المرسل إليه على فهم الإشارات الضمنية التي يتضمنها الخطاب، دون ذكرها فيه ، وتتزامن هذه الحاجة إلى الاستنباط عند شعور السامع بخرق المتكلم إحدى قواعد المعنى ، ومعنى هذا أن الهدف الأساس الذي يرمي إليه المتخاطبان هو خلق تواصل فيما بينهما ؛ لأجل إحداث تغييرات في معلوماتها (١٤). ولاشك أن المؤلف قد خاطب في الفقرة السابقة كل من التحق بالحياة العسكرية ، وهو كثيرون ، ممن سيجدون دلالة المهانة والاستهانة بأقل حقوق الجندي متوارية مختفية وراء الظاهر المثالي من خدمة الوطن والسهر على حماية أرضه من العدو الغاشم . ودل نوع العقاب على ثقافة الإمتهان وازدراء الكرامة البشرية ؛ إذ لم يعمد المسؤولون إلى تخصيص ادوات لحمل فضلات الجنود ، على النحو الذي أبرز فيه البطل رداءة ما يقدم لهم من طعام ، بل وجدوا في جمعها وسيلة عقاب مناسبة لعصاة الجنود ، فبدا المواطن العراقي كمن يجمع فضلات الحزب الواحد في الحياة المدنية وعلى الجبهة بطبيعة الحال ، وبات أبناء الوطن متخصصين في جمع فضلات الوطن المنكوب ، وجاء المسوغ واحدا في جميع الحالات : نسق الحفاظ على الوطن والذود عنه ، كنسق ظاهر يحظى بالقبول والوجاهة في مقابل نسق مضمر ينطوي على رغبة دفينة في استعباد أبناء الوطن ، وتوجيههم إلى حيث يشاء القائد ، وتوعد من يخرج عن القطيع بأشد أنواع العقاب "كان هناك كلب ضخم بحجم بناية قيادة فرع الحزب يعوص قرب باب الموضع وهو يتمدد بكسل بعد ان شبع لحما مقدد بنكهة البارود"(١٥).

يمثل النص خطابا واضحا دون تورية وتعرف بالضبط المقصود بهجائه من خلال المفارقة التي وضعها الكاتب في النص فقد استخدم الكاتب الترميز بالمفردات الحيوانية دون ان يتركنا في حيرة فيبين نوع من الهزلية في قياس حجم الكلب الذي يقتات على لحوم القتلى بأنه بحجم قيادة فرع الحزب كرمزية لأن ذاك الكلب وتنظيمات السلطة ينموان و يكبران كلما إزداد اللحم المقدد الذي تؤطره رائحة البارود كإختصار لمتبنيات البعث المبنية على القتل و التنكيل وجثث ودماء من يعارضهم ويخالفهم وقد عبر النسق المضمر الذي اشتمل عليه النتاج القصصي للمؤلف عن وظيفة منوطة بالقارئ ، من التناول و إماطة اللثام عن معنى النص ، أو النشاط الثقافي الذي لا يرى من

حيث كونه نصا ، لا عن طريق إعمال الفكر أو التحليل العقلي الموضوعي ، وإنما بالنفاذ إلى داخل النص ، فالنص – إن جاز التعبير– يعتبر عالما مقالا قائما بذاته (١٦). وبناء عليه ، لم يكتف المؤلف بإبراز الواقع ، وتناول تفصيلاته الحياتية بالدرجة التي تخدم رسالة النص فحسب وانما عمد إلى التعمية والتورية الثقافية التي تناولها ، معتمدا على مزج الحقيقة بالخيال ، والانطلاق من المرتكز السحري الواقعي إلى الواقع ، مرسلا رسالة خفية إلى المتلقي مشيرا إليه وملهما ، وكأنه يومئ إلى واقعه هو ، تاركا الفرصة لفهم تفصيلات الرسالة المرسلة ، واستخراج ما أضمرته من معان يفهمها القارئ بالطبع ، ف يسقطها على الواقع ، فيرى في تفصيلات الحكاية نفسه ، وإن مزجت الحقيقة ببعض الخيال . وقد اتكأ محمد الكاظم على مزج الحقيقة بالخيال في قصة (بشارة المريد في لغة المفيد والمستفيد) ، إذ تبدو السخرية مداها في هجاء السلطة ، فيعمد المؤلف إلى الهجاء ؛ جريا على الروايات التراثية التي تعتمد على العنعنة وعلم الرجال ، مما شكل نسقا هجائيا لاذعا هيمن على النص ، متناولا شرائح المجتمع الذي انقلبت وتبدلت أوضاعه ، فتعاكست التوجهات ، وتغيرت المعايير.

"حدثنا عبد العال الأعور عن رزاق بن زنوبة ، عن السيد جابر المعرفي عن آبائه شيوخ الطريقة العظام ،عما رواه رجل مسكين عاش في مدينتنا قبل سنين : أسود أسود أسود – كل شيء أسود ... ولا تعجب إن وجدت صورا كتبت تحتها عبارات تحذيرية من قبيل ، احذرو هذا الكلب المسعور رغم أن الصورة تحمل رسم رجل بثياب عسكرية وطربوش و رتبه عالية على هيئة جمجمة و عظمتين ، أو اقتنوا قاتل الحشرات الجديد ، وتجد صورة رجل أصلع في الخمسين من العمر وهو يسحق رؤوس مجموعة من تجار المدينة . تمعن النظر فيه ، فإذا هو زوج عشيقة رئيس البلدة" (١٧) يعتمد النسق المضمر على حدة التناقض بين نسقين متناقضين ، وكون الخطاب الجمالي يخبئ خلفه ش يئا آخر غير الجمالية ، وليست الجمالية سوى وسيلة لتمرير هذا المخبوء ، وهو ما تجلى في الفقرة الواردة أعلاه مما تعمد المؤلف فيه ابراز حجم الفجوة بين الواقع و المثال في المجتمع ، فجاءت الرواية والعنعنة تعكسان تأصل المسرود في الحدث الواقع بالبلاد منذ عقود ، كدلالة على تطاول الأمد بالسلطة الحاكمة ، مما يشي بعدم تداول السلطة ، وحاكمية الفرد والحزب الواحد . لذا، برز المناخ الدكتاتوري البغيض ، الذي عكس الأوضاع ، فبات المتأمل في ملاحم الصورة البراقة الزاهية لا يرى فيها عند تأمله سوى ملامح قبيحة استحكمت في الحياة السياسية العراقية ، فالعسكري ذو الحلة التي تنم عن القتال وجهاد العدو ليس سوى عضو في الحزب الحاكم ، يمارس سلوكياته الاستبدادية ضد العزل من أفراد شعبه وكأنه كلب مسعور أطلقه سيده على

ضعفاء ، فأصبح سلم الوصول إلى السلطة يقتضي تقديم تنازلات فادحة من الكرامة وارتضاء الهوان ، وهو ما نمذج له المؤلف بالمسؤول عن تنفيذ القانون وهو يسحق الرؤوس ، وينشر الرعب والفزع في البلاد ، وعند تفحص حالته ، ومسوغات اعتلائه لهذا المنصب ، إذا به أحد الذين فرطوا في الشرف والعرض ، فهان عليهم شرف الوطن وعرضه ، فاستباحوه لأنفسهم بلا رادع ولا زاجر وفي هذا المنطلق ، برز النسق المضمر نتيجة للأوضاع المعكوسة في المجتمع ، وتمحور في الفقرة خلف الظاهر البراق اللامع الذي يستتر وراءه المضمر القاتم كواقع يرزخ تحت أعبائه الشعب العراقي بأكمله ، وسلطة غاشمة لا تعترف سوى بالامتهان قانونا حقيقيا ينظم شؤون الدولة بأكمها ويسوغ للمجرم المتخاذل ارتقاء مفاصلها ، والتحكم في أمورها . وبينما يعاني المواطنون من السلطة الغاشمة القابضة على زمام البلاد ، يحاط المواطن بأجواء الدولة البوليسية ، فتسري عليه قوانينها وأحكامها الاستثنائية ، فيصير الكلام بحساب ، والسكوت سيد الموقف عند اقتحام الغريب حديثا بين اثنين من المواطنين ، وغيرها مما يعكس سيادة الفوضى وشريعة الغاب لا القانون ، وانعدام وجود أي كافل لحقوق المواطن الدستورية التي لا يرى فيها المواطن سوى شعار براق يخفي وراءه ممارسات سلطوية بلغت ذروتها في وقتي: الحرب والسلم على حد سواء "السخام يغطي كل شيء ، وأوجه البنايات تسود يوما بعد يوم ، والسعال صار الازمة أي حديث بين اثنين . لا أدري أي حمار أطرش أوحى لهم بهذه الفكرة . بماذا يفكرون هؤلاء الجنرالات ؟" (١٨).

لقد أبرز النص ثقافة اللامبالاة بمقدرات البلاد الاقتصادية ، والاستهانة بالدور الشعبي الذي تمت (بعثته) فصار الجميع يحلق داخل السرب ، وهو ما حدا بجنرالات الجيش إلى إشعال براميل النفط للتعمية على الطائرات ، فتناسب سواد البنايات يوما بعد يوم ؛ بفعل دخان الحرائق المتصاعد ، مع اتشاح حياة المواطن العراقي ، هو الآخر ، بالسواد ؛ إذ تحول الحديث بين اثنين إلى موضع شك وريبة ، وهو ما عبر عنه المؤلف بقوله:

(السعال صار لازمة أي حديث بين اثنين)؛ لتنبيه المخاطب بأن مما اهتم المؤلف بإبرازه ، فلجأ إلى الصورة الساخرة ، في قصة (بشارة المريد في لغة المفيد والمستفيد) ، إذ تنبأ بأن إنقاذ المدينة سيأتي على يد ابن الرسام الذي رسم الصور الساخرة على حوائطها ، ومن ثم ، كان لزاما على المواطنين التكيف مع الوضع الحالي إلى أن يأتي المخلص ، وجاءت الرشوة بوصفها الية فعالة ثمة شخصا غريبا قادما ، وقد يكون من كوادر الحزب أو مسؤولا فيه ، فيكون الصمت سيد الموقف ، وهو ما يخفي نسقا مضمرا قاتما شمل الدولة كلها ، من تكميم الأفواه ، وغياب القانون ،

وعشوائية توجيه الاتهام لكل من يشتبه في ولائه للسلطة والنظام وتأتي وسائل التكيف والتعايش مع آليات النظام السلطوي الفاسد لتحقيق هذا التكيف "قال رجل له صوت سحب جنزير على أرض حجرية ، وقد أعجبته لهجة الرجل المخبر : إنه ترياق وقتي لمرض (المستفيد) الذي ينتشر انتشارا هائلا في الجيل الذي يليكم . ثم علمنا صنع (المفيد) ؛ وذلك بوضع رقية الساحر في قدر ماء نغمس فيه ورقة نقدية لأي رجل يحمل وجه نسناس أو خفاش ، فيصاب بالعمى الوقتي فنأمن شره ، أما حاملو وجه الضفادع ، فسوف يفترسونك إذا أعطيتهم الرقية ، وقد نصحنا بالابتعاد عنهم ، والاكتفاء بمداهنة حاملي وجه الأرنب".(١٩)

اعتمدت النص على رسم صورة هزلية للمواطن في مواجهة السلطة وأذنابها من المخبرين والموظفين التنفيذيين ، فرمز لكبار المسؤولين بالضفادع ، ولأذنابهم من الصغار بالأرانب . واختفى النسق ، في النص ، وراء قدرة المواطن على التكيف مع الواقع ؛ انتظارا لمجيء المخلص ، مما رمز له الكاتب بابن الرسام ، الذي ستتطابق صوره مع الواقع المعيش . . مثل التكيف مع الواقع، وتسيير الأمور الظاهر، في مقابل تفصيلات ذلك التكيف التي اشتملت على أنساق عديدة ، كالرشوة التي نصح بها الساحر كعلاج ناجع التسيير الأمور ، والنجاة من بطش الباطشين من أذناب السلطة ، وهو ما يعكس فسادا سلطويا حتى النخاع ، يمتد من قمة الهرم إلى قاعه، إذ يعمد المخبرون والصغار إلى استغلال قربهم من مواقع السلطة الإيقاع البطش والنكال بالأبرياء الذين لا قدرة لهم على الوصول لكبار المسؤولين الذين تركوهم نهبا لصغارهم ، فضلا عن الإشارة الى علم قائد البلاد بالممارسات الخارجة عن القانون والأعراف في التعامل مع المواطنين . واشتملت النصيحة بالابتعاد عن رشوة حاملي وجوه الضفادع على نسق مضمر يبرز الشدة الزائفة في مواجهة الفساد من كبار رجال السلطة الذين يفترسون صغار المجرمين وان حاملي وجوه الضفادع لا يهادنوا بالمال لان طموحهم اكبر من ذلك وهو التشبث بالسلطة واستمرارهم بالممارسات السلطوية العبثية اتجاه المواطنين ، بينما الفساد يضرب أطنابه في البلاد طولا وعرضا ، ويشمل السلطة : كبيرها وصغيرها . ولا يقتصر الأمر على مجرد الانصياع لأوامر القائد البطل ، وحزبه فحسب ، بل يمتد الأمر إلى كيل المديح في كل مناسبة ، وإبراز بطولاته في جميع المحافل الوطنية الزائفة ، ويتجاوز الأمر حدود الحقيقة ، حين يحترم الجميع كل من يحمل اسم الزعيم البطل ، ولو أنه اسم على غير مسماه بطبيعة الحال.

"وبعد مدة قصيرة أكتشف الأطباء تركيبة ما كان يوزعه رئيس البلدة من حقن. وعلموا انها عبارة عن دواء واحد مصنوع من تكثيف نقيق الأطفال المولودين بوجه الضفدعة بعد خلطه بلعاب رئيس البلدة وبراز مقدم الخيالة ليتكون عقار يعطل مراكز الابصار والسمع والكلام في المخ. أما الحبوب الخضراء فهي مادة لتحويل الأرانب إلى ضفادع لضمان استمرار الحقن"(٢٠)

لقد استخدم الكاتب رمزيات (وضيعة) ليمرر النسق المضمر من خلال الإشارات والطرق المستخدمة في ذلك الظرف وان التركيبة التي يوزعها الرئيس المتكونة من المواد القذرة يقصد بها الكاتب الاساليب السلطوية التي فرضت على المجتمع ليتحولوا الى افراد في الحزب الذي يصفهم الكاتب بالضفادع وذلك لسلب إرادة الناس و تجذير الفكر البعثي المعتمد على انعدام الضمير و فقدان المروءة بالتعامل مع المجتمع وذلك لتوسيع نطاق الولاء للسلطة المتجبرة و نشر دائرة الأيدي الضاربة للحزب الحاكم و تضييق المساحة على إرادات الأحرار بإشارته ضفادع حتى يكثر نقيقها ويخفي رونق الكلمة الحرة و الصوت الشجاع وسعت الرؤية السردية عند الكاتب الى تمثيل الخراب الذي اصاب مجتمعا بأكمله ثم انهيار نظام القيم وانحطاط المبادئ الانسانية.

"كان أبي فخورا بأن يناديه رفاقه الحزبيون باسم (أبو صدام) ، ولم يكن معلمي الذي يقول إنه متدين من حزب الدعوة يجرؤ على شتمي كما كان يشتم زملائي التلاميذ ؛ لكيلا يقال : إنه شتم (صدام) ، فيحبسونه ويدخلون قنينة الحليب في إسته" (٢١).

يتناول النص فكرة المبالغة في تمجيد الفرد الحاكم ، حتى يصبح نصف إله ، إذ حمل النص دلالات الاعتزاز والتمجيد للبطل الرئيس ، الذي يتمتع بحب وتقدير الجماهير ، وهو موجود في كثير من الدول التي تمجد زعماءها ذوي الأيادي البيضاء على شعوبهم ، والذين تشهد لهم إنجازاتهم بالإخلاص والتفاني في حب الوطن ، والعمل من أجل رفاهية الشعب ورفع مستواه في شتى المجالات . أما ما قصد الكاتب إبرازه في النص ، فيتناول البطولة الزائفة التي يتمتع بها حاكم الدولة الشمولية التي تعيش في جلباب الحاكم الزائف ، فلا يكتفي بسلب الشعب مقدراته ، واحتكار جميع الصلاحيات والسلطات في يده ، بل يعمد إلى فرض الإعجاب بشخصه على المواطنين بالقوة ، والانفراد بكل موضع يجلب الإعجاب والفخر الزائفين . من هنا ، هيمنة على النص دلالة نسقية تحشد جميع مفردات البطولة في شخص واحد ، ويعمد إلى المبالغة حتى يصير اسم الحاكم كفيلا بتحقيق التمايز بين المواطنين ، لا لمجد واقعي أحرزه المواطن بجهده ، بل لمجرد تسميته باسم الرئيس ، وإن اكتساب هذا التميز في الصغر ، قبل أن يخرج النشئ إلى الحياة العملية كفيل بأن

يجعلهم أدوات طبيعة في يد السلطة أو مواطنين صالحين بحسب ما اعتادوه وألفوه من فساد سلطوي لافت .وتناول المؤلف ما يعمد إليه رجال السلطة من المساعدين والمخبرين ، فينشرون الشائعات بين المواطنين مما يشتمل على معلومات ومغالطات وصلت إليهم ، فيتسببون في حالة من البلبلة بين الجماهير ، ثم ينكشف الأمر في النهاية ، ويتضح ورود المعلومات إليهم عن طريق الخطأ ، وهو ما تناوله الكاتب في قصة (الغرغرينا) ، ضمن مجموعته القصصية (طواسين زرقاء) ، إذ انتشرت شائعة ، عن طريق مخبر سري ، تشير إلى مهارة فائقة تتمتع بها القطط السوداء ، على النحو الذي زاد من طلب الشراء عليها بين المواطنين :

"لقد وردنا، عن طريق أحد رجالنا الموهوبين، أن رجلا دخل على زوجته بقط أسود في ذيله نقطة بيضاء ، ما إن وضعه على الارضية حتى فتح عينيه ، ورفع شاربيه ثم أمسك بالفأر الأول وقتله ، ثم أمسك بالفأر الثاني وقتله ثم أمسك الفأر الثالث وقتله، ثم أمسك الفأر الرابع وقتله، ثم امسك الفأر الخامس وقتله! وهكذا، أصبح الطلب متزايدا على القطط السوداء ذات النقطة البيضاء في النيل رغم أن أعداد الفئران مازالت تتزايد ، ونحن بانتظار أوامركم ...العمدة"(٢٢).

جاء النسق المضمر في الفقرة ناقضا وناسخا للظاهر ، إذ تناول الظاهر فكرة القدرات الخارقة التي يتمتع بها كائن ما ، ومردودها النفسي التي سرعان ما تهرع إليها ، ولا سيما إذا كانت هذه الكائنات مما يمكن اقتناؤه وشراؤه وهو ما تحقق في القطط السوداء ذوات النقط البيضاء في النيل ؛ لقدرتها الفائقة على قتل الفئران ، مما يشي بنسق مضمر من هشاشة المحتوى النفسي لدى الجماهير وتأثرها بالخوارق ولو كانت منافيه للحقيقة التي تشير إلى تزايد أعداد الفئران ، فتنتصر بذلك للخرافة في مقابل العلم ، وهي سمة تميز المجتمعات الفاشية التي يتعلق فيها المواطن المقهور بالخرافة وما وراء الطبيعة للتنفيس عما يحيط به من مناخ دكتاتوري واشتملت الفقرة على نسق مضمر آخر ، وهو اعتماد دولة الفرد الواحد على التقارير المرفوعة إلى المسؤولين ، دون التثبت من مصدر المعلومات على النحو الذي يشير إلى ارتجالية الأداء ، فضلا عن هشاشة الوضع وتخبطه . ويستأنف الكاتب أحداث القصة ، مشيرا إلى استغلال السلطة تلك الشائعات في بناء الرموز الزائفة التي تستمد زيفها من زيف النظام نفسه ، فيقوم بتوجيه الشائعة وتفسيرها بما يخدم مصالحه ، وهو ما يدل على تخبط على مستوى السلطة الحاكمة يتماهي مع التخبط نفسه في المستويات الأدنى التي تنبثق عنها : بعد ذلك تحدث أمور غريبة من قبيل :

"خرجت تظاهرة شعبية واسعة ، تطالب بالغلق التام لمطعم للأكلات الشعبية أطلق عليها: مطعم القط الأسود ؛ لأن ما يقدمه من أكلات سيئة المذاق لا يتوافق مع قدسية القطط السوداء التي تعتبر رمزا من رموز الدولة . – كتب أحد الروائيين رواية في ثلاثة أجزاء عن مغامرات قط أسود بنقطة بيضاء في الذيل ، وعالج الروائي تلك المغامرات معالجة ملحمية جعلت من بطل الرواية القط شخصية ذات سمات أسطورية . طالب أحد الأحزاب اليسارية وبشدة منح الحريات الكاملة للقطط ، وضمانها حرية المواء وحرية التبول وحرية المعاشرة الجنسية ، واستثناء القطط من جرائم الآداب" (٢٣)

انتقل المؤلف في الفقرة ، من تحول فكري ونفسي صاحب المجتمع ، فأصبح القط الأسود شعارا قوميا ينافح عن حقوقه السياسيون وزعماء الأحزاب التي تنبثق من فكر الحزب الواحد بطبيعة الحال ، وهو ما أبرز مضمرا خافيا في النص من تداخل الثقافة السائدة في النسق الشخصاني ، كتعبير عن هشاشة فكر الأفراد ، وبروز هشاشة الفكر الجمعي المتحصل تجاه الخرافة ، ومحاولة توظيفها من شرائح المنتفعين ، ومركز السلطة الفكرية الزائفة في المجتمع ، ومن ثم ، ينبري المثقفون و الروائيو ون والمفكرون التبرير للخرافة والتأسيس لها إلى أن تتجر الفكرة في المركوز النفسي العقدي لدى المواطنين ، ويصبح القط الأسود الذي تمثله المواطن وسيلة لخلاصه رمزا من رموز الدولة ، وكأنها سلبت المواطن مجرد الحلم بتخفيف وطأة الحياة اليومية القاسية التي يحياها ، واستأثرت به لنفسها ؛ جريا على ما اعتادته وانتهجته من ممارسات . وينتهي المؤلف إلى انكشاف أمر القط الأسود ، فلا يعدو الأمر سوى خطا في جمع المعلومات دون ان تثبت صحتها ، فتأتي الحقيقة بعد قطع شوط طويل فيما بني على ذلك الخطأ ، ومن ثم ، يكتشف المجتمع ، في نهاية المطاف ، إصابته بحالة من الغرغرينا) الفكرية ، التي لم تستمع إلى صوت العلم والعقل ؛ بناء على تقرير عشوائي من أحد المخبرين (الموهوبين) :

"بعد مدة ، اكتشفت وكالات المخابرات ، ذات الخبرة الطويلة في هذه المجالات ، أن الرجل عاد الى بيته وهو متعب وينضح عرقا ، ويحمل قطا أسود في ذيله نقطة بيضاء . دخل الرجل إلى المطبخ وهو يشعر بالغبطة ، وما إن وضع القط على الأرضية حتى فتح عينه ورفع شاربيه ثم .... نام ، وتبين فيما بعد أن الرجل كان قد وعد زوجته بالقضاء على جميع فئران البيت ، وعندما رأى أن القط لم يفعل شيئا غير النوم ، خجل كثيرا ، وشعر بالعار ، فحمل المكنسة ، وفتح عينه ،

ورفع شاربيه أمام جحر الفئران ، وهكذا أمسك بالفأر الأول وقتله ، ثم أمسك بالفأر الثاني وقتله ، ثم أمسك بالفأر الثالث فقتله ، ثم أمسك الفأر الرابع وقتله ، ثم أمسك الفأر الخامس وقتله " (٢٤)

ضمن الخطاب الثقافي، في النص، نسقا مضمرا يشير إلى سهولة اختراق المحتوى النفسي والفكري للمجتمع الذي يخضع لأنظمة الحكم الشمولية ، ومن ثم ، يسهل اختراقه ونشر الشائعات فيه على النحو الوارد في النص ؛ إذ حمل النسق المضمر انتقالا من الخاص المتمثل فيما حدث بين الرجل العائد إلى منزله وزوجته ، إلى العام الذي انتشر بين شرائح المجتمع المختلفة . ودل –كذلك– على مراقبة أدق خفايا المواطنين في البيوت ، والتعامل مع المعلومة الواردة عن أحد المخبرين بمنتهى الجدية ؛ خوفا من البطش والعقاب ، مما يؤكد هشاشة النظام الذي يشعر بالخوف لأية شائعة قد تزعزع أركانه التي لم تقم على شعبية حقيقية لدى رجل الشارع ، فيحاول توجيهها لخدمته ، وعدم تمرير الفرصة من دون إحراز مزيد من المكاسب ، عندما ينكشف الأمر ، يفاجأ الجميع بضحالة المحتوى الفكري للمجتمع ، وإصابته بحالة من الغرغرينا) التي قوضت أية احتمالية للنهوض الفكري والثقافي لديه . وأكد المؤلف على فكرة الدولة البوليسية ، والتقارير التي ترفع للقيادات التي ترفعها لرؤسائها بصورة آلية ، وقد لا تقرأ ، إلا أن هذا المنهج تلجأ إليه النظم الشمولية إقامة الرقابة الآلية على المواطنين الذين يسارعون بتقديم تقاريرهم عما يدور في جلساتهم مع الأصدقاء وربما الأهل ، فيعدون على الحاضرين أنفاسهم ، مع ما يستنبطونه من الإشارات غير المنطوقة التي تعرفها معاجم اللغة ، ولو كانت ضحكة عابرة في المجلس:

" كانوا يهدفون إلى طمس معالم السماء ، ورسم سبورة سوداء بخان البترول المشتعل ؛ حتى تتيه الطائرا ت ا غيمة عملاقة من الدخان الأسود ، ولا ترى أهدافها . – هل هي طائرات ورقية ؟ قال بشير هذه الجملة ثم نهض مسرعا ؛ كيلا يلتقط أحدهم هذه الجملة التي لم يصبر على الاحتفاظ بها بين فكيه ، وترك مكانه المواجه للنافذة . ندت ضحكة لم يستطع أي من الموجودين تحديد مصدرها ، الآخرون فكروا جليا في الجملة التي قالها بشير ، ونظر بعضهم إلى بعض لمعرفة من الذي سيشي بهم أولا " (٢٥)

تكمن الدلالة النسقية في ما ورد أعلاه في الوسائل والتدابير الأمنية التي تستعملها النظم الفاشية في ترويض المواطنين ، ومنهجية تكميم الأفواه ، إذ ينتمي الجميع إلى حزب واحد ، ومن ثم ، تكون الترقيات والحوافز بمقدار ما يبديه العضو من إخلاص تجاه الحزب ، ويطلب من كل عضو كتابة تقرير عما يسمعه في الأماكن التي يرتادها : البيوت ، المقاهي ، وسائل المواصلات ،

والمجالس التي يحضرها مع الأهل والأصدقاء ، ومع عمومية المهمة المكلف بها كل عضو ، تبدو الجلسات وكأنها مجالا للعمل السري ، ونقل الغريب من الحركات والهمسات التي تدور في المجلس ، ولا يؤثر في سرية المهمة كون جميع الحضور عالمين بها ، فتتطبع النفوس على الاحتراز والاحتياط في الكلام ، ولو مع الأهل والعشيرة والولد ؛ إذ بات المواطنون رقباء على بعضهم بعضا ؛ لتسير الدولة في اتجاه واحد لا ثاني له . وتتعدد تفسيرات الجملة والإشارة الواحدة ، ولو كانت عفوية تلقائية ، ويبرز بطبيعة الحال التفسير الذي يلمح لإساءة تجاه السلطة ، مما قد يستوجب العقاب ، ويضع قائله تحت طائلة القانون ، فيحاسب الناطق نفسه قبل أن يحاسبه الآخرون : وربما يتهمك أحدهم بأنك أنت الذي قلت هذا التعليق الذي يشير ضمنا إلى أن طائرات العدو متطورة ، ولن يهمها هذا الدخان الأسود ؛ لأنها ببساطة تعتمد على الرادارات والأقمار الصناعية في تحديد أهدافها ، فهي طائرات مقاتلة حقيقية ، وليست طائرات ورقية ، مما يعني ضمنا أن خطة القيادة حمقاء وفاشلة .

"كان هناك ثمانية رجال ، ما يعني أن مسؤول الأمن سيستلم ثمانية تقارير عصر هذا اليوم عن هذه الجلسة ، علاقتنا بمسؤول الحزب علمتنا أنه سيبحث أولا عمن لم يكتب تقريرا في الحادثة ، ويحمله مسؤولية الخيانة" (٢٦).

هيمن على النص خطاب ثقافي يؤكد فكرة الدولة الواحدة والحزب الواحد ، وتأويل الكلام على غير ظاهره ، ولو قيل في مقام الدعابة ، مما حمل نسقا مضمرا يتمثل في المبالغة وتضخيم سفاسف الأمور حتى تليق بتكييف تهمة تكفي لمحاسبة القائل ، وهي سمة لافتة في النظم الدكتاتورية . ويبرز كذلك المضمر في سرعة تقديم التقارير عصر يوم الجلسة ، بمعنى أنه لن يصبر الحاضرون على تأخير تقديم التقرير ، ومن ثم ، فإن المسؤول الأمني عن الحزب سيجد الفرصة مواتية لإلحاق العقاب بمن تأخر . من هنا ، أبرزت الفقرة توجهات الدولة ككيان في أداة أفرادها ، واستغلالهم أمنيا للإرشاد عن المشتبه في تقصيرهم تجاه الوطن ، وهو نسق ظاهر يدل على الولاء والانتماء للوطن ، والتفاني في خدمته ، في حين يحمل نسقا مضمرا يشير إلى تضييق مساحة الحريات على المواطنين إلى درجة مطاردتهم في بيوتهم ومجالسهم ، ورصد كل ما يند عنهم من إشارات و إيماءات ، فضلاً عن الكلام المنطوق الذي يتفنن المسؤولون في تأويله على الوجه الذي يبرز جهودهم في حفظ الأمن واستقرار الوطن . ويستأنف المؤلف في رصد الواقع الأمني الذي يحياه المواطن العراقي :

"كنت قلقا من التقرير الذي سيكتبه أبو طارق عني ، فقد وشيت به آخر مرة لدى المسؤول الحزبي مدعيا أن زوجته ستلد ، والحقيقة أنه كان يتابع مباراة للمنتخب الوطني بكرة القدم ، وهو بدوره قد وشى بي عندما وصلتني رسالة من أحد أقاربي الذي يعيش في السويد(٢٧). إذ يمثل النص دلالة نسقية مضمرة تمثل النسق المضمر في الفقرة في تخالف الدلالة النسقية الظاهرة والتي تقوم على التفاني في حب الوطن ، وتبليغ المسؤولين عن أعدائه المتربصين به ، وهو مما يخفي من العمالة للجهات الأمنية التي تنبثق منه ، وابتعاده عن المهنية و الحس الأمني ، على النحو الذي يعكس توجهاته لحماية فرد على حساب شعب بأكمله ، واعتماده علي الوشايات و التقارير الأمنية التي ترده أولا بأول من جميع أعضاء الحزب الذين هم كل المواطنين العراقيين . وأشار النسق المضمر إلى عدم قبول القيادات أية اعتذارات لقاء الاجتماع برجال الحزب ، فضلا عن عدم اكتراثهم بالمنتخب الوطني ، واعتبارهم الرياضة وسيلة لإلهاء الشعوب ، وشغل الناس عن الجاد النافع من الأمور . بناء على ما تقدم ، استطاع القارئ أن يترسم ملامح النظام الحاكم من خلال عدة مواقف مختلفة حملت في طياتها معاني مختلفة مما يحياه المواطن العراقي في ظل سلطة لا تعترف بحقوقه الدستورية المشروعة ، ولا تعمل الا لمصلحتها فقط ، تناوله المؤلف من خلال الأنساق الثقافية المضمرة وعلى الصعيد الخطابي نفسه نجد محمد الكاظم يوظف في هجائه الثقافة الحداثوية والاحالات الرمزية السياسية واضحة.

"والمرأة التي تنبش برميل القمامة وجدت جزمة عسكرية طويلة العنق وطاقية حمراء يرتديها في العادة رجال الانضباط العسكري ، فقررت على الفور ارتدائها فمضت وهي تأكل قطعة خبز وجدتها في البرميل وقبل ان تغيب المرأة في المنعطف الاخير لمحها الجميع وهي تحاول السير كما يسير الجنود على نغمة الاغنية العتيقة احنا مشينا للحرب"(٢٨).

يوظف الكاتب رموز الحداثة هنا توظيف ساخر يمرر فيه نسقا مضمرا يكشف عن اللعبة الانتهازية التي لعبتها السلطة الحاكمة بأيهام الناس بقائد الضرورة وصور البطولات الزائفة لكن الواقع غير ذلك فمنذ اول اطلاقة اقاموا بخلع ملابسهم العسكرية ورموها في براميل القمامة واصبح الدفاع عن الوطن مهمة منوطة بالفقراء حيث يشير الكاتب الى تلك المرأة التي لبست البدلة العسكرية وتحاول السير على ايقاع اغنية احنا مشينة للحرب، ولاذ اصحاب البدلات والشعارات بالفرار.